من أقاصيصه وشعره الوجداني

من ذكريات آدم

جلس جدّنا آدم ذات مساء بعد أن طوى من عمره ثلاثمائة سنة قضاها في التعب والأعمال الشاقة لكي يوفّر لِبَنيه شيئًا من الراحة. جلس مسندًا ظهره إلى شجرة جوز باسقة الأغصان، وأقام حوله أولاده وأحفاده وبنوهم، وكلّهم يحدّقون بثور كبير وُضع على النار استعدادًا للأكل قبل الرقاد. وكانت الدماء تتدفّق من عنقه فتكاد تخمد النيران، ورائحة الشواء تملأ تلك الأصقاع فترقص الشهيّة. ودنا الصغار من الجدّ يداعبون لحيته المستطيلة الراقدة على صدره. ويجلسون على ركبته ضاحكين باسمين. وكان الصمت مخيّمًا على القوم لا يعكّره سوى حفيف الأوراق، ورقرقة ساقية تجري في آخر الغابة. فمال الأطفال على جدّهم يطلبون منه أن يروي لهم قصّة جميلة كعادته كلّ مساء عندما يعود من العمل، فنذمّر من طلبهم ورمقهم شذرًا وتململ في مكانه وقال:

ـ دعوني الآن فإنّي حزين. إنّ هذا اليوم يذكّرني بأشياء هائلة... بأحلام لذيذة لو تحقّقت لرجعنا جميعًا إلى الجنّة نتنعّم بلذائذ الفردوس المقدّس!!

فأحاطه أولاده إحاطة السوار بالمعصم وقد تبيّنوا في تقاسيم وجهه حكاية رائعة لها تأثير في تاريخ حياتهم. وألحّوا عليه بالطلب وقال له أكبرهم سنًّا:

ـ قُصّ علينا شيئًا في انتظار الطعام يا أبي. إنّ ذكريات شبابك جميلة تحملنا على أجنحتها إلى أيّام سعيدة قبل أن تفسد الأرض...

فاستقام الشيخ في جلسته، وأدخل أصابعه في لحيته ثمّ ابتسم وقال:

ـ كان لي من العمر خمسون سنة في ذلك الحين، وكانت المرحومة أمّكم تعيش بقربي فنعمل في الأرض لكي نتوصّل إلى إعالة نفسنا وإعالة عائلة صغيرة لا تزيد على عشرة أولاد. ولكنّها كانت دائمة التذمّر، فتلعن الحيّة التي طعنتها وجعلتها تأكل من الثمرة المحرّمة، وتذرف الدموع على عهد سعيد مضى ونحن نعيش في الفردوس لا نعرف شيئًا من شقاء الأرض وأتعابها. ويزيد ألمها عندما ترى أطفالها يتضوّرون جوعًا وهم يطلبون ما يقتاتون به. ولم تقف عند هذا بل حنقت أيضًا على الملائكة الذين شاهدوها وهي تبتلع التفّاحة ولم يُظهروا لها نتيجة عملها بل وقفوا يرقبون حركاتها، إلى أن أتت على الثمرة فطاروا إلى الله يَشونّ بها، ويخبرونه بما أتت صنيعته في الجنّة، تلك المخلوقة التي فضّلها على سواها ووضع الملك في يدها بعد أن سخّر لها الحيوانات والأشجار والأعشاب والمعادن، وكلّ ما في الطبيعة من حيّ وجماد. فكنتُ ألطُف من غضبها وأعِدُها بعفوٍ من لَدُنه تعالى. ولكن يأسها كان يزداد يومًا فيومًا وتقول:

ـ إنّه غفور كريم ولكن الملائكة لا يَدَعونه يفعل ما يريد لأنّ الأب لا يغضب على أولاده... فهم يحسدوننا... يحسدوننا..

تقول ذلك وترفع يديها إلى السماء مهدِّدة ثمّ تعود إلى عملها شاكية تنتحب حتّى بات كوخنا جحيمًا لا يُطاق. فأخذت أضرع إلى الله أن ينقذنا من هذه الحياة وأن يعيدنا إلى وطننا الأوّل، أو أن يقضي علينا فيفنى جسدنا الذي حبست فيه الروح.

وفي أحد الأيّام بينما كنت ساجدًا أمام قربان قدّمته، إذا بي أرى السماء تنشقّ ويبرز منها موكب كبير من الملائكة، تحيط بهم غمامة بيضاء مذهّبة الأطراف وإذا بالبخور يملأ الأرجاء، ويجعلني في شبه غيبوبة. ولم أعد إلى الصواب إلاّ وأمّكم واقفة إزائي؛ والملائكة يحيطون بنا، وعلى ثغورهم بسمة ساذجة، وفي أيديهم غصون الزيتون مورقة، وعلى جبين كلّ واحد منهم إكليل من الزنبق العاطر العاجيّ. فهمست حوّاء في أذني تقول:

ـ قد جاء وقت العمل فلننتهز الفرصة قبل أن تضيع من يدنا، فها قد جاؤوا!!

قالت ذلك ودنت منهم ترحّب بقدومهم وتنثر على أقدامهم الورد والآس، وتعبق العطور وفيت المسك والكافور. ثمّ تأبّطت ذراع رئيسهم ومالت على أذنه تقول

ـ ما جئتم تعملون على الأرض؟؟

فأجابها إنّ الله أرسلهم بمهمّة عظيمة ليقوموا بها، فربتت على جناحيه الأبيضين وقالت:

ـ إذًا ستُمضون النهار عندنا؟؟ إنّ سكّان الأرض من آدميّ وحيوان ونبات ومعدن يحتفلون بنزولكم من السماء لتتنزوا على ظهر البسيطة الأمل والرجاء.

فأمضوا ذلك اليوم فرحين وهي تسير برفقتهم، توقفهم على أعمالنا في الأرض، والمشاقّ التي تصدمنا أنّى نسير، إلى أن مالت الشمس نحو المغيب فاقتربت بهم من جدول رقراق نبتت على ضفّتيه الأعشاب الخضراء المستطيلة، وأشجار الصفاف الوارفة الظلال.

وعندما عدتُ من عملي رأيتهم يرقصون على ضفّته وهي تدفع فيهم روح الحميّة والنشاط، وقد بدت فاتنة ساحرة، والطيور على الأدواح ترفع أعذب الألحان وأرقّها، فظننت نفسي في حلم، وتذكّرت بعض مشاهد علقت بذهني عندما كنت في الجنّة حيث تصدح مواكب الملائكة بأوتارها وألحانها.

وإذا بها بعد قليل تتوقّف عن الرقص وترفع يدها في الفضاء وتصيح بهم:

ـ قفوا... أنظروا... إنّي سأسقيكم شرابًا كوثريًّا عجيبًا... شرابًا لم تعصر الأثمار مثله؛ ولم يكوّن النحل أعذب منه، وهو آخر ما توصّلنا إليه على هذه الأرض، نستعيض به عن أيّام الفردوس السعيدة؛ إذا شربه الإنسان أصبح ملاكًا وإذا ذاقه الملاك أصبح إلهًا... هو سرّ العظمة والخلود والألوهيّة...

قالت ذلك واقتربت منهم تحمل إلى ثغورهم كؤوس الخمور، فرشفوا ما بها حائرين، لا يعلمون ما يحمل إليهم هذا السائل العجيب الذي يجعل من كلّ واحد منهم إلهًا يرتع في سماء خالدة وحوله العوالم والكواكب والقدّيسون...

ولم يكد يمضي عدّة دقائق حتّى رأيتهم يرتمون على الضفة ثملين، بعد أن خمدت أصواتُ الفرح المتعالية من صدورهم. وإذا بأمّكم تدنو من كلّ واحد منهم فتنزع الريش من جناحيه الأبيضَين الجميلَين.

فوقفت في مكاني مصعوقًا وقد أدركت أنّها التجأت إلى الحيلة في الانتقام من ملائكة سذج لم يقترفوا ذنبًا. ولكنّها عادت بعد قليل تحمل الريش فوضعته أمامي وأشعلت به النيران. وقد وددت في تلك الساعة أن أذرف من عينيّ دموعًا غزيرة أُطفئ بها اللّهيبَ المشتعل بتلك الكومة المقدّسة. ولكنّها رمقتني بطرفها وقالت ضاحكة:

ـ ماذا رأيت... أيعجبك هذا؟؟

وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وبدأ الظلام يزحف على الأرض بغلائله السوداء، فإذا بأنغام بوق تدوي في الفضاء، وإذا ببروق تلمع بين الغيوم وتنفجر السّماء عن فتحة من نور، يبرز منها الذي وهبني الحياة ونفخ فيّ قسمًا من روحه. وإذا بجبرائيل يتقدّمه فلم يكد يرى جموع الملائكة على تلك الحالة، وقد خُلِعَ عنها الريش، حتّى دنا منّي كالمصعوق وصاح صيحة منكرة:

ـ الويل لك أيّتها الخاطئ، قد أرسلَ إليك ربّ الأرباب مَن يُعيدك إلى فردوسك المفقود بعد صلاتك وتضرُّعك... أتَنْزِعُ منه ريشه، وتسلبه صفة الألوهيّة، وتقضي على أجنحته بنيرانك؟ أيّها الجاحد، على الأرض ستبقى إلى يوم القيامة، تتعرّف إلى أسباب الشقاء والبؤس، فلا سبيل إلى الفردوس بعد الآن ولا عفو من لدنه تعالى!!

فخررت على الأرض ساجدًا من هول ما سمعت وما رأيت! وعندما عدت إلى رشدي، وجدت الله قد مسخ الملائكة الشاقطين حيوانات، والسماء مكفهرّة قاتمة الأفق، وريحًا صرصرًا تعصف في أذني... تنعي إليّ أملاً نشدته، بعثرته أمّكم كما يُبَعثِرُ الصّباحُ الحُلُم...

جبّور عبد النور

ذهب الذين أحبّهم!!

ذهبَ الّذينَ أُحبّهم ولن يعودوا
فقد وقفوا في الأمس على الهَضبة هناك
وَرفعوا أيديهم إلى رؤوسهم إشارة للوداع
وصفّقوا وساروا لا يلوون عليّ...
لم أخن لهم عهدًا ولم أكن عقوقًا
بل قضيتُ طفولتي ومرحلةً من شبابي على أتمّ وفاق
فكنت أحنو عليهم وأُضحّي بهنائي في سبيل مرضاتهم.
ولكن الآن... ذهب الّذين أحبّهم!!!

* * *

كنّا نسير مع الوادي المزهّر ننشد كلّ صباح
ما لُقّننا إيّاه راهب القرية عندما كنّا صغارًا
فتتعالى النبرات العذبة وتتراكض بين الصخور والأشجار
وتهبّ العصافير تجيب على نغماتنا المتناثرة
كأنّها تريد مزج صوتها الموسيقيّ بصوتنا المتماوج...
... إنّ الذين أحبُهم هم أنصاف ملائكة
يستقبلون الفجر بالتّسابيح والمساء بالتهاليل
ولكن الآن... ذهب الذين أحبّهم!!!

* * *

كانوا ينظرون إلى عينيّ عندما أكون حزينًا
فيفقهون ما بي ويصنعون لي دواء شافيًا يُدعى ـ بسمات ـ
فأشعرُ بلذّة عند ارتشافه من تلك الثغور!!
كم أودُّ الآن شبيهًا له يشفي ما بي من الأوصاب
وَيُخفّف آلامَ قلبي الذي أنهكه بعادهم
ويشفي ما بقلبي من أنات وتأوّهات!
ولكن ذهب الطبيب ولن يعود

فقد ذهب الذين أحبّهم!!!

• • •

لماذا الصدود والهجران يا مَن أُحبّكم؟
أنا في هذه الحياة فراش وأنتم الزهور
وهل يعيش الفراش دون ورود وبراعم؟؟
ذهبتم ولا أعلم لماذا لم تحملني أكفّ الربيع
لأسير حيث تسيرون وأحلّق حيث تسكنون؟؟
... إنّي بين بقاياهم وأوراقهم المتساقطة أبكي
وأستعيد ذكريات الماضي القريب
فقد ذهب الذين أحبّهم!!!

• • •

قد كانوا يَحنُّون إليّ حتّى ساعة الوداع
فرأيت في مآقيهم دموعًا غزيرة
تساقط على وجوههم وتسيل كأنّها الماء الزلال...
وكم وددت أن أرشف تلك القطرات الكوثريّة
فاطفئ بها نيران قلبي المشتعلة!!
فَهُم أعزّ الناس عليّ ولكن الآن قد مضى كلّ شيء
وأصبحتُ كالتائه في صحارى هذه الحياة القاحلة
فقد ذهب الذين أحبّهم!!!

• • •

أيّها القلب لماذا تضطرب بين ضلوعي المحطّمة
وتُسرع في خفقانك كأنّك تودّ الخروج؟؟؟
قِفْ قليلاً وانعشْ في سكونٍ علّكَ تسمع همسات الرياح
التي تئنّ قرب باب غرفتي كأنّها ثكلى تبكي عند مدفن وحيدها!
أُنظر أيّها القلب الطّبيعة الحزينة
إنّها تلبس رداءها الأسود القاتم

(*) هذه شبه رؤيا حدّثنا فيها عبد النور عن حياته وعن المعاناة التي كانت تنتظره.

وتُشاركني في أحزاني العظيمة وأشجاني الصامتة
فقد ذهب الذين أحبّهم!!!

° ° °

ذهبوا وهم يتلهّفون متألّمين لفراقي
وقد سمعت تنهّداتهم العميقة التي حَمَلَتْها النسمات
فجلست على الأعتاب وأخفيت وجهي بين يديّ وطفقت أبكي!
وهل لا يبكي مَن يصيبه ما أصابني؟؟
عندما يأتي المساء وتبدو النجوم من نوافذها
أسير بين الكروم والأشجار أناديهم بأعذب الأسماء!
فأنا أستحقّ الشفقة والرحمة...
فقد ذهب الذين أحبّهم!

بحمدون ـ ج. عبد النور